رحلة الى قنوبين

في جبل لبنان

سنة ١٧٢١

يبعث بها الاب بنيكوه المرسل اليسوعي الى الاب فاوريو

نقلها عن الافرنسية

القس انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس معاملة جبيل والبترون

٢

قمنا في السابع عشر الى مار اليشع [1] ، الواقع على مسافة نصف ساعة من مار سركيس ، ورافقنا اليه نائب الدير وراهبان آخران . اما مار اليشع فمشيد في سفح جبل هائل ، على ضفة نهر قاديشا ، اي النهر المقدّس ، الذي ينساب في وادٍ ضيّق ، ومن جانبيه اشجار الصنوبر والجوز والبلّوط والكروم . وعلى مسافة ثلاثين قدماً من جانبي النهر ، سلسلة جبالٍ صخريّة هائلة .

وفي تلك الصخور مغاور وكهوف كانت قديماً صوامع متوحدين عديدين اختاروا عيشة الانفراد ، وتحمّلوا شظف العيش ومارسوا التوبة المتواصلة الشاقة .

انّ دموع هؤلاء النسّاك كانت السبب لتسمية هذا النهر المنبجس من جبال لبنان ، بالنهر المقدّس . وانّ منظر كهوفٍ ونهر في قفر مخيف مثيرٌ في القلب عوامل الانسحاق والتوبة والشفقة على نفوس شهوانية عالميّة تتفضّل لذة أيام وفرحها على ابديّةٍ سعيدة .

أما رئيس مار اليشع فقبلنا بابهى مظاهر المحبة ؛ وجمهور ديره يتألّف من

---

١) راجع ما جاء عن هذا الدير في تاريخ الطائفة للدويهي ، ص ١٥٩ ؛ وفي تاريخ الرهبانية اللبنانية للاب بليبل ، مج ١ ، ص ٢٤ و٣٥ و٢٢٣ ؛ وما كتبناه في مجلة المشرق (٢٤[١٩٢٦]: ٧٤٦-٧٤٩)

عشرين راهباً مارونيا يُلقَّبون بالحلبيين ، وهم وحدهم يستحقون اسم الرهبان .

أسكنهم هذا الدير منذ زهاء خمس وعشرين سنة كاهنٌ قديس يُدعى عبدالله [1] ، وسار في تدبيرهم ونظام معيشتهم على مشورة الاب المكرَّم نقولا بازير [2] (Bazire) وكان هو اوّل رئيس عليهم ثمّ أُخذ من ديره قسراً وسيم اسقفاً ، وديرنا في عينطورة هو في ابرشيته [3] ، وأقام خلفاً له في ديره الاب جبرائيل [4] الراهب النادر باحتشامه ومثله الصالح ، والمحترم والمبجّل عند عموم الموارنة والروم والاسلام انفسهم نظراً الى سموّ معارفه في اللغة العربية .

يقضي الرهبان الحلبيّون هؤلاء سنتين في التجربة . لا يأكلون اللحم ابداً ، والفقر لامعٌ في ملابسهم . يرتّلون الصلاة نصف الليل ، وقد حضرناها عندهم

---

١) هو الاب عبدالله قرألي الحلبيّ مؤسس رهبانيتنا اللبنانية والمحسن الكبير الى طائفتنا . ولا بدع ان دعاه الاب پيكوه « بالكاهن القديس » لان شهرة فضائله ملأت انحاء جبل لبنان وسورية وما جاورها من البلدان ، وتحدثت بها الالسن ، واجرى الله على يده الكرامات في حياته وبعد مماته . وُلد هذا الاب سنة ١٦٧٤ ، ولبس الزيّ الرهبانيّ في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٩٥ ، وسيم كاهناً في ١٤ ايلول ١٦٩٥ . وانتُخب رئيساً عاماً ادواراً ، ورقي الى اسقفية بيروت في ١٧ ايلول ١٧١٦ . ورقد بالرب في ٦ كانون الثاني ١٧٦٣ ، ودُفن في الرمس المدّ له بكنيسة دير سيدة اللويزة . ولا تزال الى الآن محفوظة في هذا الدير عمامته (طاليته) ومنديلها كأثمن الذخائر . طالع ترجمته المطوّلة التي درّجها عشيره وتلميذه الاب توما اللبودي ، ونشرها الاب رباط في مجلة المشرق (١٠[١٩٠٧] : ٦٢٥ و٩٩٥ و٧٣٠ و٧٩٨)

٢) يظهر ان الاب بازير كان من اصدقاء الاب قرألي ، فكان يتداول واياه في وضع الفرائض الرهبانية .

٣) ان دير عينطورة هذا هو اليوم مدرسة الآباء اللازريين المشهورة .

٤) هو الاب جبرائيل فرحات الشهير احد مؤسسي رهبانيتنا الذي خلّف للغة العربية من تصانيفه تركة علمية لا تعادل بثمن . ولا عجب اذا أجلّه الموارنة والروم والاسلام ، فانه احد اعلام الامة المسيحية في الفضل والعلم . وُلد في حلب في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠ ، وترهّب ١٦٩٥ ، وسيم كاهناً ١٦٩٧ ، وأقيم رئيساً عاماً من سنة ١٧١٦ الى سنة ١٧٢٥ التي فيها رقي الى اسقفية حلب في التاسع والعشرين من تموز باسم جرمانوس . وتوفي في ١٥ تموز ١٧٣٢ . عليك بترجمته النفيسة التي ألّفها المؤرخ المدقّق المرحوم المطرسقف جرجس منش ونشرها في السنة السابعة من مجلة المشرق (١٩٠٤) ثم طبعها على حدة بعنوان : « المستطرفات في حياة السيد جرمانوس فرحات »

ثلاث مرّات ، وكانت لنا خير قدوة حشمتهم في الكنيسة وحرارتهم في الصلاة. يصرفون قسماً من نهارهم في حراثة الارض وفي الاعمال الخدمية ، ويكشفون افكارهم لرئيسهم كل يوم صباحاً ومساء ، ويبذلون في حفظ فرائضهم ، ولاسيما فريضتي الصمت والصوم الشاقّ ، منتهى الدقّة . يندرُ ان يروا الناس ، ولا تدخل النساء كنائسهم . وان بدا من راهب تراخٍ او تقصير في واجبات دعوته فيخرجه الرئيس ، ولو كان مضى على نذره عشر سنوات . وللرئيس استطاعة على حلّه من نذوره [1] .

أقمنا في ذلك الدير الى الثامن عشر . وغادرناه صباحاً مع هداتنا الى قنُوبين الذي يبعد عن مار اليشع نحو ساعتين. وقد وقعت اعيننا على كثير من صوامع كان يسكنها المتوحدون قديماً ، وقد اقفرت وهدمها المتاولة والمسلمون.

ورأينا ايضاً اطلال بعض مناسك كائنة في بطون صخورٍ ذات تحدُّرٍ بليغ بحيث يصعبُ معه فهم الواسطة للصعود اليها.

دخلنا معبداً محفوراً حفراً متقناً ، فيه مذبحان على أحدهما صورة العذراء ، وعلى الآخر صورة القديس انطونيوس. والى جانب هذا المعبد في الصخر نفسه ، بعضُ صوامع لم تعدّ لائقةً بسكنى المتوحدين فيها مرتاحين . والنهر المقدّس يجري في سفح هذه الجبال على مسافة نحو من ستّ ساعات.

وصلنا دير قنُوبين [2] وهو كرسيّ بطريرك الموارنة . فقُبلنا فيه بكل محبّة وعطف . فيه عدد قليل من الرهبان . مساكنهم حقيرة فقيرة ، وكسوتهم ومعيشتهم أفقر وأحقر . يعيش البطريرك والرهبان وبعض الاساقفة المارونيين معاونيه باتحادٍ كامل وآدابٍ قدريةٍ في البساطة والطهارة . يُنزلون بالضيوف الطفيفة عقاباً صارماً ، ويقبلون الغرباء بالرغم من فقرهم المدقع بكل محبةٍ وبشاشةٍ وفقاً لروح الضيافة عندهم. ٥

---

١) ان قانون رهبانيتنا في ذلك العهد كان مثبتاً من السيد البطريرك ، لا من الكرسي الرسولي ، لذلك كان للرئيس العام استطاعة الحلّ من النذور .

٢) طالع ما كتبه عنه الاب لامنس في كتابه تسريح الابصار ، مج ١ ص ١١١ .

قابلنا البطريرك [1] ببزته الحمراء الكاملة المذيلة بالفرو ، من تحتها اللباس الارجواني ، وهو متجلببٌ بثوبٍ من الاحتشام أكمل.

ومعبد الدير على اسم السيدة العذراء ، وقد مضى على تشييده ، على ما فهمنا من البطريرك ، اربعة عشر جيلًا . والمعبد مقارٌ فسيحة جميلة مزدانةٌ بتصاوير كثيرة منها صورة اينوشنسيوس الحادي عشر [2] ، ولويس الرابع عشر [3] ، أرانا اياهما البطريرك نفسه . وقد حضرنا اكثر من مرةٍ صلوات النهار والليل التي تمت على أوفر عبادةٍ وتقوى . طقسهم (ليتورجيتهم) قديم سرياني تتخلله بعض مقاطع عربية مكتوبة بالحرف السرياني المدعو بالكرشوني.

وغُرَف الرهبان مقارٌ بجانب الكنيسة يخرجون منها ويرجعون اليها متحملين حرّ الصيف وقرّ الشتاء. ومن جملة تلك الغُرَف غرفةٌ نُقشت على جدرانها اسماء الاباء اليسوعيين الثلاثة : يوحنا برونو (Bruno) ، ويوحنا المعمدان الميان (Aelien) ، وايرونيموس دنديني (Dandini) الذين ارسلهم سنة ١٥٨١ البابا غريغوريوس الثالث عشر ، ثمّ اكليمنضوس الثامن ، قصّادًا الى الموارنة.

وقد شرّفنا البطريرك كل مدّة اقامتنا في قنوبين باجلاسه إيانا معه لتناول الطعام على مائدته مع رهبانه ، حيث شهدنا القناعة باكل مظاهرها ، لانّ طعامهم سلطة خضر وفجل وقليل من السمك المملّح مع خبز يابس أسود . أمّا خمرتهم ففاخرة لم يُشرب في فرنسة أجود منها.

بذل البطريرك جهده ليبقينا زماناً اطول في ديره ، لكننا اعتذرنا بانّ وقتنا محدود ، واستأذنّاهُ بالسفر . وقبل المسير حضرنا صلاة الليل وتلونا القدّاس ، ثمّ اكرمنا غبطته بوشاحه [4] الجديد ، وزوّدنا ببركته ، وسافرنا

---

١) هو السيد يعقوب عوّاد الذي رقي العرش البطريركي سنة ١٧٠٦ ، وقضى نحبه في ٩ شباط سنة ١٧٣٣ . راجع سلسلة البطاركة ص ٤٤ و٤٥ ، والفصل الذي كتبه عن البطريرك يعقوب عوّاد الموسيو ريسطهوبر في كتابه « تقاليد فرنسة في لبنان » ص ٢٥٠–٢٨٦

٢) تسنّم العرش البابوي سنة ١٦٧٦–١٦٨٩

٣) جلس على عرش فرنسة من سنة ١٦٤٣–١٧١٥ وكان عمره حينئذٍ خمس سنوات.

٤) بدلة التقديس.

مصحوبين بشماسه (الانجيلي) الخاص ليهدينا في طريقنا الوعرة المسالك.

وعلى رمية حجر من باب الدير معبدٌ مُقام على اسم القديسة مارينا . وكلُّ ذلك المكان معطّرٌ برائحة قداسة هذه العذراء ، وهو حافظٌ لها احتراماً لا يوصف .

لا يُخالج أحدًا ريبٌ بما يخبرنا التاريخ عن حياتها : فانها قد لبست لباس الرجال ، ودخلت دير الرهبان ، وخدمت الله بهذا الثوب سنين عديدة . وقد سمح الله فشكيت زورًا بفعلةٍ شنعاء مع ابنة قريبة من مسكنها ، فحكم عليها رئيسها باعمال توبةٍ شاقةٍ تمارسها في مغارةٍ صارت بعدئذٍ معبدًا على اسمها وهي الى الآن تُكرَّم فيه . على انَّ الله الذي يهتمُّ دائمًا باوليائه اظهر براءتها المشهورة ، واثاب فضيلتها حتى في هذه الحياة الدنيا ، بعجائب عديدة جرت عند قبرها .

صلّينا في هذا المعبد التقويّ واخذنا طريق دير القدّيس انطونيوس[1] الذي يبعد نحو ساعتين من قنوبين وسلكنا اليه في جبل ما رأيت في حياتي اصعب منه صعودًا ولا هبوطًا . ودير القديس انطونيوس هذا قائمٌ في سفح جبل من صخر مخشوشن ، يسكنه ثلاثون راهباً حلبيًا ، مرَّ بك كلامٌ عنهم ، بينهم اثنا عشر كاهناً يقيم فيه مؤسسهم الاسقف عبدالله ، الرئيس الاول عليهم قبل تسقيفه ، والذي قبلنا ببشاشة عظمى . إنَّ هذا الحبر يحيا في هذا الدير حياة قداسةٍ حقَّة كأبسط الرهبان ، وعيشته اضيق من عيشتهم الشظفة ، ولا يتميز عنهم الّا بثوبه البنفسجي[2] .

---

١) غير دير مار انطونيوس قزحيًا . المزار العمومي الشهير ، حيث يجري الله بشفاعة هذا القدّيس آيات معجزات . وللمطران فرحات قصيدة رائعة في وصف هذا الدير وما يُقام فيه من صارات ويجري فيه من جرائح . ديوانه طبعة سنة ١٨٩٦ ص ١٦٤ ، راجع تاريخ دير قزحيًا للاب نعمة الله الكفريّ في المشرق (٤[١٩٠١] : ٢٦١ و٨٢٣) وما كتبناه نحن ايضًا . المشرق (٢٤[١٩٢٦] : ٧٥١-١٥٥) وما ورد عنه في تاريخ الرهبانية مج ١ ، ص ٥٩ .

٢) من طالع ترجمة هذا الحبر التي أشرنا اليها تولاه العجب من الاماتات والتقشفات الصارمة التي كان يمارسها بحيث لم تتغير رتبة الاسقفية شيئًا من سياق حياته الرهبانية الماضية ، بل زادته زهدًا وتقشفًا ومحبةً لاخوته الرهبان وغيرة على رهبانية ما افتأ يتعهدها بعنايته

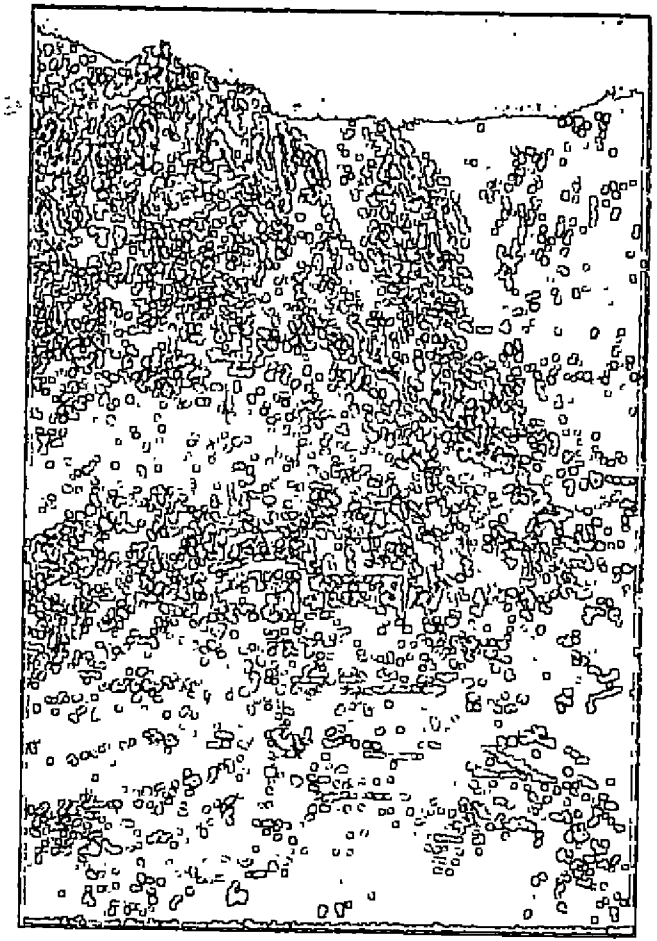

دير قشوبين

دير مار اليشاع – في سفح الوادي المقدّس

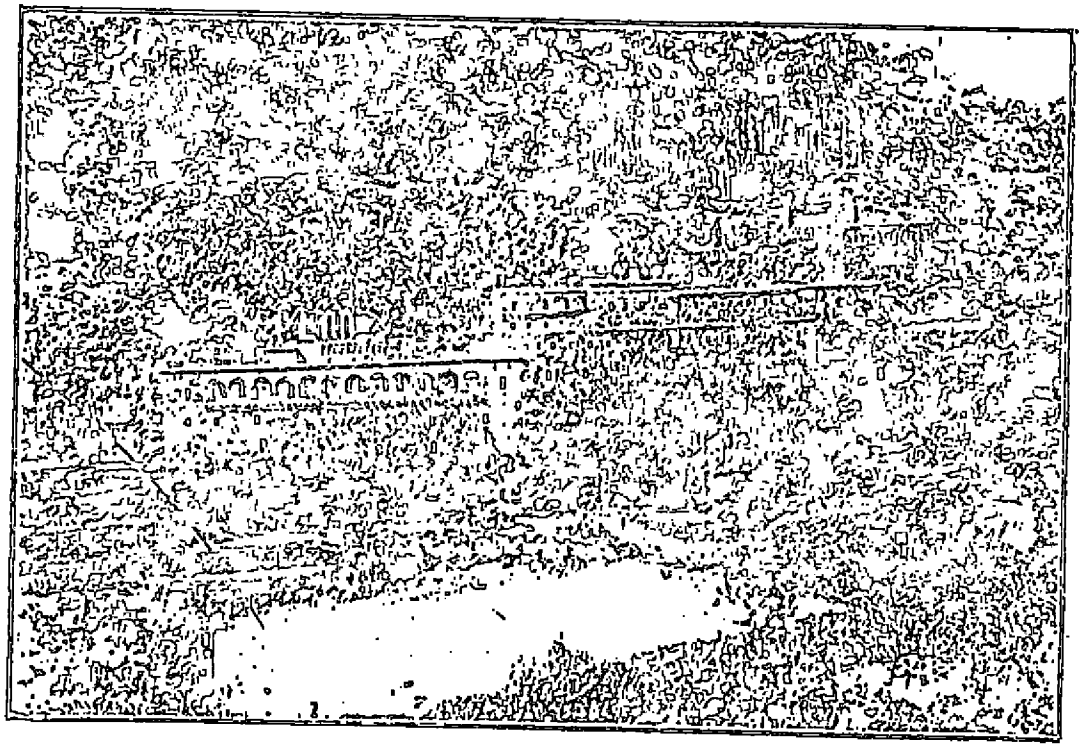

دير مار انطونيوس قزحيا

أمسكنا هناك يومين كاملين ، وأرانا الدير وما جاوره ،وهو ، اي الدير ، قسمان كلٌّ على حدة ، ولكل قسم كنيسة . غير أنّ صلاة القرّاءة تُقام في الكنيسة الكبرى ، وزينة الكنيستين نظافتهما البليغة . وأرانا ايضاً مغاور اخرى كلها معابد بينها معبدٌ كبير جميل على اسم القدّيس ميخائيل فيه ثلاثة مذابح ، وغرفتان صغيرتان يسكنهما رهبانٌ يتمّون رياضاتهم الروحية[1] . وفي آخر الجبل الموازي مغارتان أخريان فيهما اثنان من رهبان الدير نفسه يسيران سيرة التوحد الكاملة ، فلا يخرجان منهما ابدًا ولا يتحدّثان الى احد الّا الى الرئيس ليكشفا له افكارهما كل يوم ؛ وكلاهما كامنان بقيان الذبيحة الالهية في معبدٍ صغير محفور في الصخر .

يمتنع على انسانٍ ان يرى قدوة تقوى اعظم من التي رأيتُ في رهبان هذا الدير .

قضينا معهم يومين ، ثم استأذنت المطران عبدالله بالسفر ، فاصحبني بهادٍ يرشد خطانا الى عرجس بطرق كلها مهاوٍ يمتنع على مثلنا قطعها بغير هادٍ .

المسافة من عرجس الى طرابلس اربع ساعات . وهذه المسافة سهلٌ واحدٌ منبسط بديع المنظر مغروس بالزيتون وبسواه من الاشجار المختلفة . وصلتُ الى طرابلس مرتاحاً ، ومنها سافرتُ حيث تابعتُ بنعمة الله مهامَّ الرسالة بالرغم من الامراض السارية التي كانت السبب في زيادة أعمالنا ، ولم يوقف خطرها الكبير غيرة مرسلينا ، وعارٌ على من لا يقتدي بهم .

ومن حيث إنّا بحاجةٍ كبرى الى نعم الله المتواصلة ، نطلب منك ومن جميع ابائنا ان تلتمسوا لنا هذه النعم من الله في قداديسكم الالهية . هذا وانا بتملقي بكم واحترامي لحضرتكم أوضع واطوع بنيكم .

بتيكوه (Petitqueux)

ومثله الصالح الى آخر حياته ، بصرف معظم ايام اسقفيته في ادياره ازدانت بفضائله وفاحت منها روائح نسكه ، عائشاً بين اخوته كواحد منهم غير متميز عنهم الا بثوبه كما رأيت ، آخذاً النفس بالاماتة البالغة والجهاد النسكي صوناً للكمال .

١) راجع ما كتبناه عن هذا المنسك وغيره في مجلة المشرق (٢٤[١٩٢٦] : ٧٥٢)